

الحياة العمرانية في دمشق

في العهد العثماني

م. نزيه الكواكبي

● تمهيد :

يلاحظ الباحث في تاريخ العمران والعمارة ، ندرة ما كتب من أبحاث عن الفترة العثمانية ، وأن ما كتب عن الفترات التاريخية الأخرى ، أكثر بكثير مما كتب عنها . وليس السبب في ذلك ندرة المخطوطات والوثائق بل فتور الهممة ، والخوف من الكتابة عن هذه الفترة ، إذ أن الوثائق متوافرة بكثرة ، وثمة مخطوطات عربية كتبها شهود عيان عاصروا ما حدث أو عاصروا فترة قريبة مما حدث . هذه الوثائق مبعثرة في شتى أرجاء المعمورة ، أضف الى ذلك أن الوثائق العثمانية التي بدأ الاهتمام بها مؤخراً ، الى جانب رسائل القناصل الفرنسيين والانكليز والروس ... تشكل بمجملها مصدراً هاماً لتكون فكرة صحيحة عن تاريخ تلك الفترة بعد متابعة جميع هذه الوثائق وقراءتها بدقة وروية وحياد .

المدن العربية والاساءة الأوربية المتعمدة للتاريخ العثماني :

يقول الأستاذ أندريه ريمون : « ان قلة معلوماتنا عن تاريخ المدن العربية تبدو واضحة بصفة خاصة بالنسبة للفترة « الحديثة » التي نهتم بها هنا ، أي خلال القرون العثمانية الأربعة (ق ١٦ - ق ١٩) . وأسباب هذا النقص في المعلومات عديدة ؛ في البداية أود الإشارة الى فقدان الاعتبار تجاه الفترة العثمانية التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر وانتهت بتفكك الدولة وسط أعمال عنف

أدت الى تعميم صورة القرون العثمانية السابقة . ويقع جزء من المسؤولية أيضاً على عاتق الغربيين الذين أدى نفورهم من الفترة العثمانية السابقة للاستعمار الى الاساءة بوعي الى حد ما ، الى ما كان قائماً قبل سيطرتهم ، وهي سيطرة يهدفون منها الى « تحديث » البلاد التي يغزونها .

ومع ذلك ، فان الحقبة العثمانية توفر مزايا ضخمة للبحوث في المجال العمراني . إن المدن القديمة التي نعرفها هي أولاً وقبل كل شيء ميراث مباشر لعصر كان طويلاً للغاية (أربعة قرون في سورية وفلسطين) وبالتالي فان هذا العصر لابد أنه قد أثر بعمق في البيئة العمرانية . وبالرغم من التدمير الذي حدث بسبب الانفجار المدني وبسبب تحديث هذه المدن في الفترة الأخيرة ، إلا أن المراكز القديمة قد حافظت على ثروة وفيرة من الروائع التاريخية والأشكال المدنية التي يمكن بدراستها توضيح البحوث الخاصة بالبنيان وبالوظائف العمرانية » .

« ويمكن أن نتوقع من الأعمال الجارية الآن ، تجديداً شاملاً لمعارفنا عن المدن العربية » ، « إن هذا التقدم يجعلنا نتوقع حدوث انقلاب خلال بضع سنوات في معارفنا عن المدن العربية الكبرى » .

أقول : ان من يتفحص اليوم شوارع دمشق القديمة وامتداداتها الطبيعية : العقيبة ، ساروجة ، القنوات ، باب سريجة - قصر حجاج - باب مصلى ، الميدان ، الصالحية مع متابعتها في كتاب القلائد أو المفاكهة أو البداية والنهاية أو الروضتين أو خلاصة الأثر أو سلك الدرر أو حوادث دمشق اليومية أو دمشق المدينة الاسلامية ، ويقارنها بما ورد في النصوص يرى في ذلك متعة كبيرة ويشده ذلك ، ذلك لأن المدينة ما زالت محافظة على حالها رغم ما تعرضت له من التغيرات السريعة التي تتم الآن بشكل لا يمكن وصفه ، والتي تقضي على معالم دمشق العمرانية قضاء مبرماً وتغيرها تغيراً جذرياً .

وهكذا نرى أن الاساءة متعمدة وأن التعميم مهياً له ، ومن المؤسف تبني كثير منا لما كتبه الغرب ، إن لم يكتب أحد منا ما يمكن للغرب معه أن يتبينه ويتبناه لذلك علينا من خلال دراسة سجلات الادارة العثمانية المحفوظة في استانبول وفي عواصم الولايات وفي وثائق الأوقاف وسجلات المحاكم الشرعية أن نوضح الصورة

وأن نكتب بهدوء وحياد عن هذه الفترة دون أية خلفية مسبقة ، وما هذه الأوراق إلا البداية عن عمران وعمارة دمشق في تلك الفترة العثمانية .

حال دمشق قبل الفتح العثماني :

كان وضع دمشق بائساً للغاية ، إذ كان تيمورلنك على أبواب دمشق وكانت الخلافات والصراعات والاضطرابات بين الأمراء في القاهرة خلال الفترة التي كانوا يتهيئون فيها للقدوم الى نجدة دمشق على أشدها . أخيراً ، دخل السلطان دمشق في يوم الخميس ٢٣ كانون الأول ١٤٠٠ م / سادس جمادى الأولى ٨٠٣ هـ وضرب خيامه في قبة يلبغا جنوبي دمشق ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش تيمورلنك قد وصلت الى البقاع ، ونزل تيمورلنك في قطنا الى الغرب من جيوش السلطان ، ثم تحول الى سطح قاسيون وتمركز في قبة سيار يراقب السلطان ، والسلطان يراقبه ، وبدأ الجيشان بحفر الخنادق ، أما أولى المناوشات فقد بدأت يوم السبت ٢٥ كانون الأول ١٤٠٠ م / ٨ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ حيث ملأت جيوش تيمورلنك الأفق ، وجيش السلطان يستعد للقتال . وفي الخامس من كانون الثاني ١٤٠١ م / ١٩ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ، رحل تيمورلنك الى شقحب قرب الكسوة في محاولة لجمع الميرة والأعلاف ، وفي اليوم التالي الخميس ٦ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٢٠ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ، عبأ تيمورلنك قواته بطريقته المعهودة ، وهي عبارة عن صفوف طويلة من المشاة ، وصلت الى أكثر من سبعين صفاً ، يراوح طول الصف الواحد بين ١٢ - ١٦ كيلومتراً تتقدمها الفيلة . أما الغريب في الأمر فهو الانسحاب الفاجيء للسلطان والجيش المصري من دمشق تحت جنح الظلام بسبب خلافات داخلية في القاهرة وتركها بمفردها أمام تيمورلنك وجهاً لوجه ، وتم الانسحاب مساء يوم الخميس ٦ كانون الثاني ١٤٠١ م / ٢٠ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ ، حيث سُمعت في معسكر المصريين جلبة وضوضاء وشاحنات ، وصلت الى سمع تيمورلنك ، بل إنه رآها بينه ، واستنتج ببساطة أن المصريين على وشك الفرار ، فعاد الى معسكره وقضى الليل فيه آمناً مطمئناً ، وهاجم تيمورلنك مدينة دمشق يوم الجمعة بعد رحيل السلطان ، فتصدى له عوام دمشق وغلمانها ، ومن بقي فيها من المماليك وقاتلوه بضراوة .

طبعاً ، دخل السلطان القاهرة يوم الخميس ٢٢ كانون الثاني ١٤٠١ م /
٥ جمادى الآخرة ٨٠٣ هـ وبينما القتال يدور كان تيمورلنك يزور أضرحة آل
البيت في مقبرة باب الصغير ويناظر علماء دمشق ، ويأمر ببناء قبتين على ضريحي
أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما ، ولثم يستغرق بناؤهما معاً أكثر من خمسة
وعشرين يوماً ، مع ما كان يعانيه أهل دمشق آنذاك من العنت والمصادرات ، ثم
زار ضريح بلال الحبشي ، وعاد الى مقره في القصر الأبلق .

أما الكارثة الفعلية ، فلم تبدأ الا بعد سقوط القلعة ، رغم أن بطولات المدافعين
عنها تفوق الوصف ، فقد استمات المدافعون عنها الى درجة أعجزت تيمورلنك وحيرته .
واستمر القتال الضاري زهاء الشهرين ، ثلاث وأربعون رجلاً معظمهم من الأحداث يواجهون
تيمورلنك وجنوده ، ولما أعياهم الحال وكثرة الجراح وانعدام الأمل لم يجدوا بداً من طلب
الأمان ، فأمهم تيمورلنك ، ونزلوا اليه يوم الجمعة ٨ آذار ١٤٠١ م / ٢١ رجب ٨٠٣ هـ ،
وكان أول ما فعله أن هدم القلعة وسواها بالأرض .

وإثر سقوط القلعة ، لم يعد يمنع دمشق من تيمورلنك مانع ، ذلك أن
تيمورلنك ، ما إن استحوذ على كل شيء في دمشق ، حتى قبض على ابن مفلح
المفاوض وألزمه وأعوانه بأن يكتبوا له أوراقاً بجميع خطط دمشق وحاراتها
ودروبها ودورها ، ثم وزع هذه الأوراق على أمراءه وقسم المدينة بينهم ، ودخل
الأمراء المدينة ، وسار كل منهم الى الحارة التي أقطعت له . وبعد أن أتى
الأمراء على المدينة ولم تعد لهم بها رغبة ، أصدر تيمورلنك أمره للجنود بالنهب
العام ، فدخلوا المدينة يوم الأربعاء ١٦ آذار ١٤٠١ م / آخر رجب ٨٠٣ هـ
وبأيديهم السيوف مشهورة ، فقاموا بما قاموا به ، ثم أضرمو النار في المنازل ،
وكان يوماً شديداً الريح ، فعم الحريق المدينة بأسرها ، واستمرت النار مندلعة
مدة ثلاثة أيام بلياليها ، وأتت النار على الجامع الأموي فأزالت النار محاسنه
ولم يبق منه الا جدره وقد تفطر منها الرخام الذي كان يغطيها . ويقول المؤرخ
الفارسي يزدي : أن تيمور حاول انقاذ المسجد من الحريق ، فأرسل قائده شاه
ملك لهذه الغاية ، ولكن سقف المسجد كان قد انهار قبل وصوله ، ويشير المؤرخ
متعجباً الى أن النيران قد حولت الحجارة الى رماد في ذلك المسجد لكنها لم تصل
الى مئذنة عيسى . . . ويقول المقرئزي : « أن المدينة أصبحت أطلالا بالية ورسوماً
خالية قد أقفرت من الساكن وامتلات أرضها بجثث القتلى . ولم يبق بها دابة

تدب الا الأطفال لا يتجاوز عددهم الآلاف » . وكان الذي أضرم النار في الجامع الأموي الفرق الخراسانية في جيش تيمورلنك . وقد استمر النهب العام ثلاثة أيام كان آخرها يوم الجمعة ١٨ آذار ١٤٠١ م / الثاني من شعبان ٨٠٣ هـ .

ويقول المؤرخ الدمشقي ابن عربشاه : « فأقسم بالله ، لقد كانت الأيام علامة من علامات يوم القيامة » ، ولقد كان أشد شيء على دمشق حريقها ، لا ما أخذه تيمورلنك . وأخيراً ، وبعد ثمانين يوماً من المعاناة والدمار ، لم يبق من دمشق غير الأطلال ، غادر تيمورلنك دمشق يوم السبت ١٩ آذار ١٤٠١ م / الثالث من شعبان عام ٨٠٣ هـ ، بعد أن هدم القصر الأبلق .

دمشق بعد رحيل تيمورلنك :

بعد رحيل تيمورلنك ببومين ، تحركت القوات المصرية لنجدة الشام ، الا أنها عادت أدراجها بعدما وصلت الأخبار بعودة تيمورلنك الى بلاده . أما دمشق فقد هاجهما الجراد بشكل لم تعهده منذ قرون ، وأتى على كل شيء ، فتاه أهالي دمشق في البراري يجمعون الجراد ومخلفات تيمورلنك ، يبيعونها ليقتاتوا بثمرتها ، وأصبح الجراد طعام غالبية ممن بقي في بلاد الشام . ثم انتشر اللصوص والأراذل فهجموا على الناس وصاروا ينهبون ويقتلون واستمر الحال حتى عودة نائب الشام « تغري بردي » اليها بعد أكثر من شهرين من رحيل تيمورلنك في أيار ١٤٠١ م / الخامس من شوال ٨٠٣ هـ .

استمر الخراب في دمشق ، بعد رحيل تيمورلنك ، مدة طويلة ، وفي الشواهد التالية ما يعطي فكرة : ففي آذار ١٤٠٢ م / شعبان ٨٠٤ هـ أقيمت الجمعة في الجامع الأموي وهو خراب ، كما كانت المدينة كلها خراب لا أنيس بها ولا ساكن . وأخذ الناس يبنون في الفوطة خارج الأسوار ، واستولوا على معظم أراضي الأوقاف ، فنودي في البلد بالعودة اليها، وهدمت البيوت التي بنت خارجها . وبعد سبع سنوات أي سنة ١٤٠٨ م / ٨١١ هـ أمر نائب الشام أهل المدينة بعمارة مساكنهم والأوقاف التي في البلد .

ثم قرىء كتاب الناصر محمد بن قلاوون ، بالزام الناس بعمارة ما خرب من المدارس في دمشق . ويقول العلموي عن المدرسة القليجية : « احترقت في فتنه

الملك سنة ٨٠٣ هـ واستمرت كوم تراب الى حدود سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م
حيث أعيد بناؤها .

ويقول ابن قاضي شهبة في حوادث دمشق سنة ١٤١١ م / ٨١٤ هـ : « وفي
يوم الجمعة ثاني رمضان ، رأيت المؤذنين يسلمون ويؤذنون في المنارة الغربية ،
وأظنه أول يوم أذن فيها بعد عمارتها من فتنة تيمورلنك » .

ويذكر العلموي : أن المدرسة الجقمقية شمالي الجامع الأموي بقيت
خراباً حتى أعيد بناؤها سنة ١٤١٨ م / ٨٢١ هـ .

أما القلشندي فقد ذكر أن حارات دمشق وبيوتها كانت ما تزال مدمرة حتى
عهده سنة ١٤١٦ م / ٨١٩ هـ ، ولم يعمر في دمشق إلا القلعة لضرورات الحكم .

لقد أسفر اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام عن نتائج بالغة الأهمية : فمن الناحية
العمرائية تعرضت المدن لما يشبه التدمير التام ، ومن الناحية الاقتصادية تدهورت
الزراعة لسنوات طويلة نتيجة الإبادة الجماعية التي قام بها تيمورلنك للإنسان والأرض .
كذلك تدهورت الصناعة للسبب نفسه ، ونقص المال لما جمعه تيمورلنك من الأموال ،
ويتضح ذلك من عجز الناس عن بناء بيوتهم المهتمة لما هم فيه ضائقة مالية .

ومن العجيب أن تيمورلنك بعد ذلك ، استطاع أن يقيم علاقات ود وصفاء
ومودة مع الناصر فرج ، ووقع معه « معاهدة سلام » ختمت بقول الناصر
« يا أول الصفو ، هذا آخر الكدر » .

إذن هذا باختصار وضع دمشق قبل دخول العثمانيين ، لقد تسلم العثمانيون
مدينة شبه مدمرة لما تنهض من دمارها بعد ، فبدلوا جهدهم في ترميم ما تهدم
وقاموا بالبناء والتشييد لدرجة تضاعفت معها مساحة دمشق في عهدهم كما سنرى
فبلغت مساحة دمشق ٣١٣ هكتاراً بعد أن كانت حوالي ١٥٠ هكتاراً .

دمشق في الفترة العثمانية :

في ٢٤ آب ١٥١٦ م / ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ : هُزمت القوات المملوكية في
معركة مرج دابق قرب حلب ، مما مكن السلطان سليم الأول من فتح بلاد الشام ،
ودخول دمشق دون أي مقاومة في ٢٨ أيلول ١٥١٦ م / ١ رمضان ٩٢٢ هـ .
ثم غادرها الى مصر للقضاء على دولة المماليك ، حيث هُزمت قواتها التي كانت

تحمي مصر قرب غزة ٠٠٠ ثم عاد الى دمشق في ٢٧ أيلول ١٥١٧ م / ١١ رمضان ٩٢٣ هـ ومكث فيها حتى ٢٢ شباط ١٥١٨ م / ١٠ صفر ٩٢٤ هـ . أي مدة أربعة أشهر ، أمر خلالها ببناء قبة على ضريح الشيخ الصوفي الشهير محي الدين بن عربي ، والى جانبها جامع بخطبة سمي : بالجامع السليمي ؛ وفي ١ شباط ١٥١٨ م / ٢٠ محرم ٩٢٤ هـ رسم ببناء تكية شمالي الجامع دعيت بالتكية السليمية ، تولى نظارتها تقي الدين باكير الرومي ، وكذلك جدد ناعورة لذلك ، كما سنتحدث مفصلاً عن أول مبنى عثماني في ضاحية الصالحية في دمشق . ومن الجدير بالذكر أن نائب الشام جانبردي الغزالي الذي رشحه السلطان قانصوه الغوري لهذا المنصب ، قد انضم للجيش العثماني ، لذلك عينه السلطان سليم نائباً على الشام ، إذ لم يُجر في تلك الفترة أية تغييرات إدارية .

بدا وصول العثمانيين للدمشقيين مجرد حادث محلي ، لا مناسبة ملحوظة ستفتح عهداً جديداً ، فقد كانت بالنسبة لهم مجرد تغيير حكام ، إذ خلف المماليك مجموعة أخرى أصبحت ذات امتياز هي الانكشارية . على أي حال ، كان هناك رد فعل الأُمراء ، ظهرت بأن أحاط نائب الشام جانبردي الغزالي نفسه بجميع العناصر المناوئة للعثمانيين ، وما لبث إثر وفاة السلطان سليم الأول عام ١٥٢١ م / ٩٢٧ هـ الذي عينه ، أن رفض الاعتراف بسلطة السلطان سليمان ، وقام بثورته لثورته للانفصال عن الدولة العثمانية ، فحاصر القلعة ، وأقفل الجامع السليمي وكذلك التكية السليمية وصادر ما فيها من مؤن وأدوات طبخ ، ثم أعاد الجامع وأبقى التكية مقفلة . وسرعان ما أصبح الثائر سيد طرابلس وحمص وحماة وزحف محاصراً حلب دون نجاح ، ثم عاد الى دمشق ليواجه القوات التي أرسلها السلطان سليمان ، وفي معركة القابون ، شمالي دمشق في ٢٧ كانون الثاني ١٥٢١ م / ١٧ صفر ٩٢٧ هـ هُزم جانبردي الغزالي وقتل .

وتحت حكم السلطان سليمان ، تغيرت القوى السياسية ، وتوطدت الدولة ، وأظهرت الادارة العثمانية بعض ملامح التنظيم . ففي عام ١٥٢٥ - ٢٦ م / ٩٣٢ هـ قام العثمانيون بأول مسح للأراضي والسكان ولضرائب دمشق ؛ دمشق التي لم تعد سوى باشوية متوسطة في رحاب الامبراطورية الكبيرة ؛ لقد كرس العثمانيون دولة جديدة تتميز بازدهار الريف والمدن نتيجة للاهتمام بالفلاحين

من ناحية وانطلاق التجارة من ناحية أخرى ، سواء ضمن المناطق الواسعة التي أصبحت تمتد فيها الدولة العثمانية أومع الدول المجاورة . ان الفتح العثماني لبلاد الشام بشكل عام ولبلاذ الشام الجنوبية بشكل خاص ، قد فتح صفحة جديدة من الازدهار في تاريخ المنطقة . والوثائق العثمانية تبرز بوضوح الاستقرار في الريف والازدهار في المدن خلال السنوات الخمسين الأولى للحكم العثماني ، اذ نمّت القرى وتوسعت المدن بعد أن كادت تندثر اثر سقوط الحكم المملوكي . وهكذا أخذت تظهر الآن قرى جديدة وأخذت القرى القديمة تنتعش وتتطور ، مما أدى الى زيادة كبيرة لعدد السكان في العقود الأولى للحكم العثماني في بلاد الشام . ففي لواء دمشق على سبيل المثال ، استناداً للسجلات العثمانية زاد عدد القرى من ٨٤٤ قرية سنة ١٥٢١ م / ٩٢٧ هـ الى ١١٢٩ قرية في سنة ١٥٦٩ م / ٩٧٦ - ٧٧ هـ بينما ازداد عدد بيوت الفلاحين من ٧٠٦٩١ في عام ١٥٢٨ م / ٩٣٤ - ٣٥ هـ الى ١٠٧٦٠١ في عام ١٥٤٨ م / ٩٥٤ - ٥٥ هـ أي بزيادة قدرها ٥٤٪ .

ان هذا الازدهار الكبير للريف يبدو موازياً للازدهار العمراني الكبير للمدن في بلاد الشام في مطلع العصر العثماني . وفي الحقيقة ، كما رأينا ، عانت المدن الشامية كثيراً في القرن الأخير للحكم المملوكي ، فدمشق نهبت في فتنة تيمورلنك ، ثم عانت دمشق من أزمة اقتصادية كبيرة تحت ظل المماليك لدرجة أن السلطان سليم الأول حين دخل دمشق لم يدخل سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال .

وفي أوائل القرن ١٧ م / ١٢١ هـ وفي أواخر القرن ١٦ م / ١١١ هـ ، ضعف نفوذ السلاطين واضطربت الحدود العثمانية ، الآن الامبراطورية بقيت واسعة للدرجة تحمي معها دمشق التي تقع في موقع متوسط من الامبراطورية والتي كانت على شيء من الرخاء بسبب التجارة والحج الى مكة ، فشهدت دمشق على امتداد طريق الحج باتجاه الجنوب توسعاً عمرانياً كبيراً على مسافة تمتد كيلو مترين وهو يمثل احلى السمات الأساسية لتاريخ المدينة العمراني في العصر العثماني .

ويتجلى النشاط التجاري في بناء أسواق وخانات ومجمعات عمرانية مختلفة ففي عام ١٥٢٥ - ٢٦ م / ٩٣٢ هـ قرر قاضي القضاة ولي الدين بن الفرفور وشرع في بناء سوق يقع قبالة باب جيرون وغطاه بقباب مبنية من الآجر المشوي ،

محمولة على أقواس وتجعل السوق في منأى عن خطر الحريق ، ولم يسبقه أحد كما يقول المؤرخ ابن طولون بمثل هذا النموذج من الأسواق في دمشق .

كذلك بنيت بعض الزوايا والترب والجوامع الى جانب المباني التجارية كالأسواق والخانات . ففي عام ١٥٢٥ - ٢٦ م / ٩٣٢ هـ بنيت الزاوية الصمادية داخل الشاغور قرب الباب الصغير ، وفي عام ١٥٣٣ م / ٩٤٠ هـ بنيت تربة لطفي باشا شرقي جامع دنكر لتضم جثمان الوالي لطفي باشا .

ويزداد النشاط التجاري اثر توقيع اتفاقية المرافىء بين فرنسا والدولة العثمانية في أوائل عام ١٥٣٥ م / ٩٤٢ هـ حيث فتحت المرافىء العثمانية أمام تجار فرنسا مما أمكنهم من العمل عبر شرقي المتوسط لدرجة أصبح معها في نهاية القرن الثامن عشر ثلاثة أخماس التجار الأوربيين من الفرنسيين ، حيث قاموا باستيراد البضائع المصنعة ، وصدروا المواد الأولية والتوابل . وهكذا رأينا بناء سوق الخياطين عام ١٥٤٣ م / ٩٥٠ هـ ولاحظنا بناء خان الجوخية أو ما عرف فيما بعد بخان الخياطين من قبل أحمد شمسى باشا . أما جامع عيسى باشا الذي توفي عام ١٥٤٣ م / ٩٥٠ هـ فكان قد بني خارج الأسوار تجاه باب النصر . أما المبنى المتميز الذي شيد خارج الأسوار فهو التكية السليمانية التي بنيت كمجمع عمراني يضم جامعاً ومدرسة وتكية وسوقاً وسبيلاً في عام ١٥٥٤ - ٦٦ م / ٩٦٢ - ٧٤ هـ ، وفق الطراز العثماني البحث بمئذنتين رشيقتين وبهندسة من المعمار سنان . وفي عام ١٥٥٤ م / ٩٦٢ هـ بنيت الزاوية السعدية البرانية على طريق الحج في منطقة الميدان . وفي عام ١٥٥٥ - ٥٦ م / ٩٦٣ هـ بنى أحمد شمسى باشا التكية الأحمدية داخل السور ، وفي عام ١٥٦١ م / ٩٦٩ هـ بنى مسجد القرمانى . أما الوزير لالا مصطفى باشا ، الذي ولي على دمشق في الفترة بين ١٥٦٣ - ٦٩ م / ٩٧١ - ٧٦ هـ فقد بنى الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق عام ١٥٦٣ م / ٩٧١ هـ ، ثم بنى حماماً في سوق السروجية عام ١٥٦٣ م / ٩٧١ هـ وبنى جامعاً قرب الخان عام ١٥٦٤ م / ٩٧٢ هـ ، أما سنان آغا الانكشارية فقد بنى جامعاً قرب باب الفرج سنة ١٥٦٥ م / ٩٧٢ هـ بالقرب من القلعة أيضاً ، مجاوراً لسوق المناخية .

لقد بقيت التجارة الخارجية نشطة جداً، ولم تتمكن الحوادث السياسية من إيقاف نشاط التجارة الواسع والكثيف مما أدى إلى بناء عديد من الخانات خدّمت كفنادق للتجار إلى جانب التبادل التجاري وحفظ المواد فيها. كذلك لاحظنا تعرض بعض الأسواق للحريق كسوق الميدان المحروقة، والتي بنى فيها مراد باشا مكان خان من الخانات تكيته الشهيرة بتكية مراد باشا النقشبندى عام ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م والتي تضم مسجداً وغرفاً وسبيلين قبلي وشرقي وتربة دفن فيها اثر وفاته عام ١٥٧٤ م / ٩٨٢ هـ.

أما والى درويش باشا، ففي واحد من أهم وأقدم الخانات التي بناها كخان الحرير عام ١٥٧٣ - ٧٤ م / ٩٨١ هـ في المدينة القديمة ضمن الأسوار، رأينا في سقطه الترتيب الشامى المعتاد: باحة سماوية كبيرة مربعة الشكل، محاطة برواق ذي أقواس، تنفتح برواق ذي أقواس، تنفتح عليه المحلات والاسطبلات، بينما يخصص الطابق الذي يعلوه للنوم، كذلك قام والى درويش باشا أيضاً، ببناء حمام داخل السور عرف بحمام القيشاني عام ١٥٧٣ - ٧٤ م / ٩٨١ هـ وبنى خارج السور مجمعاً عمرانياً وجامعاً ضخماً يتميز بقاشانيه الجميل في بداية حي القنوات، مع تربة له ومدرسة فوق الساباط وسبيل ينهل منه الناس والحجاج وميضأة، إن هذا النمط من التزيين أتى مع العثمانيين، حيث زرع فن من فنون مدينة استانبول في دمشق. وهكذا أخذ يتأكد ظهور طراز معماري جديد في نسيج دمشق العمراني، إذ أن المسجد العثماني مصمم من حرم مربع تعلوه قبة نصف كروية محمولة على مثلثات كروية، مع رواق واحد مغطى في الأمام أو أكثر، مع مئذنة واحدة يتم الدخول إلى المسجد من تحتها، أو أكثر، تتميز بجذع متعدد الأضلاع كالدائرة ورأس مخروطي، فلاحظنا إضافة لما سبق مسجد باب الكنيسة ومئذنته الشهيرة التي بناها التاجر علاء الدين بن الحجيج قبل عام ١٥٨٢ م / ٩٩٠ هـ. أما التكية المولوية فقد بنيت إلى الغرب من جامع دنكر عام ١٥٨٥ م / ٩٩٣ هـ وإلى الشرق من التكية السليمانية.

ومما يجدر ذكره، أن السلطان العثماني أصبح حامى الحرمين الشريفين، لذلك فقد أبدى اهتماماً خاصاً بالحج إلى مكة نتيجة الدور المتزايد الذي أخذ يلعبه طريق الحج الشامي منذ بداية العصر العثماني. فمع ضم بلاد الشام للإمبراطورية العثمانية ومع توسعها في جنوب شرق أوروبا وانتشار الإسلام فيها، أصبحت قافلة الحج الشامي واحدة من أهم قافلتين للحج في ذلك الوقت، وأضحت

تضم الحجاج من الشام والأناضول والبلقان بالإضافة الى حجاج العراق وآسيا الوسطى ، مما كان يعني عملياً تجمع حوالي ٢٠ - ٦٠ ألف حاج سنوياً في دمشق . وقد كان عبور هذا العدد الضخم خلال بلاد الشام من أقصاها الى أقصاها . والاقامة في المدن الواقعة على الطريق وخاصة دمشق التي كان يتجمع فيها جميع هؤلاء ومن ثم ينطلقون معاً ، يؤدي الى تنشيط الحياة التجارية خلال عدة شهور في كل عام . وبالفعل فان قافلة الحج الشامي كانت قافلة للتجارة أيضاً ، إذ كان بعض الحجاج يعمدون الى ممارسة التجارة في الطريق لتغطية نفقاته ، وهكذا وجدنا أن بضائع البلقان والأناضول وآسيا الوسطى تتجمع في دمشق ، حيث يتم تداول بعضها ، بينما يتابع بعضها الآخر طريقه الى الحجاز ، ويتكرر الأمر مع بضائع الحجاز والشام في طريق العودة الى الأناضول والبلقان وآسيا الوسطى . ومن الطبيعي أن تستفيد جميع المدن الواقعة على هذا الطريق من قافلة الحج الشامي ، وبشكل خاص دمشق ، فقد تأثرت البنية العمرانية لدمشق كثيراً باتجاه طريق الحج الذي تسلكه القافلة بالتوسع المستمر نحو الجنوب . إن هذا السيل المتدفق السنوي المتكرر جلب نشاطاً تجارياً كثيفاً ، وكان الحجاج ينتهزون فرصة بقائهم في هذه المحطة العمرانية للتهيؤ لعبور الصحراء ، لذلك كانوا بحاجة لشراء الدواب من سوق الخيل وكذلك مواد التخيم ، وعليهم أن يتمنوا بما يبقى لديهم لثلاثة أشهر من الزاد . وفي اللحظة الحاسمة كان على باشا دمشق ، أي الوالي الذي حمل لقب أمير الحج ترؤس قافلة الحج الرسمية مرافقاً المحمل الشريف ، وعليه أن يعبر طريقه الى المدن المقدسة بحماسة الجيش . وفي طريق العودة كانت دمشق أيضاً أول مركز عمراني هام يستريحون فيه مطولاً ، فكان الحجاج يبيعون فيه كما أسلفنا ما اشتروه من الجزيرة العربية سواء القهوة أم العبيد .

وكان لدمشق أيضاً دور كبير في إغاثة الحجيج ومساعدته عندما يتعرض للسيل الشديد أو الفرق أو عندما يتعرض لأية أزمات أخرى .

ان هذا السير الى الجنوب والعودة منه الى الشمال ، ساعد في تطور حي جديد قرب السهول خارج باب الجابية . هذا الحي كان حي القوافل ، حيث تجد هناك مختلف أنواع الأدوات ، الى جانب التموين اللازم في الأسواق ، جنباً الى

جنب مع الباعة المتجولين والحدادين وبائعي الجلود . لقد أصبح اسم هذه المنطقة بل الحي : السنانية ، نسبة للجامع الكبير* والمجمع العمراني الذي بناه الوزير العظيم سنان باشا والي الشام بين سنة ١٥٨٦ - ٩١ م / ٩٩٤ - ٩٩ هـ . يتميز هذا الجامع بعناصره المعمارية وبوابته المقرنصة ومنارته المغطاة بالقاشاني المزجج الأخضر والتي يمكن رؤيتها وتمييزها من مسافة بعيدة جداً . أما المجمع فقد ضم حمام السنانية ومكتب سنان باشا لتعليم القرآن الكريم ، وسبيلا ، الى جانب خان / قيسارية تحتوي على ٣٩ مخزن علوي وسفلي واصطبل كبير في السوق المعروف بالبزورية ، الى جانب سوق كبير يحتوي على ٧٤ دكاناً بطاقات عاليات مع ٣٤ حجرة من الحجرات العادية ، بالاضافة الى دكاكين أخرى ومخزن وأرض (حوش) الى جنوب الجامع أصبحت تعرف لاحقاً : بسوق السنانية .

لقد كان هذا السوق منشأة جريئة التصميم ، بديعة الشكل ، تمتد نحو الجنوب ١٠٥ أمتار وتقوم على ثمانية عشر قوساً مدببة ومنخفضة .

لقد أخذ أهم تطور عمراني لدمشق في العصر العثماني يتطور : ألا وهو الامتداد الخطي لدمشق عبر ما دعي بالميدان ، بأقسامه الثلاثة : التحتاني والوسطاني والفوقاني ، الذي جعل دمشق تمتد حتى بوابة الله والتي حددت أقصى الحدود الجنوبية للمدينة حيث تتناوب سلسلة من المستودعات عرفت بالبوايك والأوابد المملوكية والعثمانية دون أي انفصال بينها لمسافة ثلاث كيلومترات . نلاحظ في هذه الفترة انتهاء بناء سوق المرادية سنة ١٥٩٧ م / ١٠٠٥ هـ ، وبناء مكتب الحاج حسن التذكري عام ١٥٩٧ م / ١٠٠٥ هـ أيضاً ، وبناء جامع سياغوش باشا عام ١٦١٧ م / ١٠٢٧ هـ في منطقة الشاغور ، وبناء حمام البكري عام ١٦١٧ - ١٨ م / ١٠٢٧ هـ في منطقة القيمرية ، ولاحظنا بناء مسجد أبي بن كعب خارج باب شرقي عام ١٦٢٠ م / ١٠٣٠ هـ أما ثكية العسالي التي بناها الوالي كوجك أحمد باشا في فترة ولايته الثالثة للشام عام ١٦٣٥ م / ١٠٤٥ هـ ، فكانت خارج بوابة الله على طريق الحج . ومن الجدير أن

* والذي بني عام ١٥٨٦ م / ٩٩٥ هـ .

نلاحظ تجديد مئذنة جامع المعلق بعد انهدام ثلثها من الصاعقة الربانية عام ١٦٤٨ م / ١٠٥٨ هـ أيام محمد باشا كافل الممالك الشامية ، وكذلك تجديد جامع نبرويز بن عبدالله عام ١٦٥٩ م / ١٠٦٩ هـ ، وتجديد مئذنة جامع الجوزة في العقيبة عام ١٦٧٦ م / ١٠٨٧ هـ . كذلك بناء خان الخضيرية في محلة القطانين قبل عام ١٦٨٢ م / ١٠٩٣ هـ ولاحظنا في سوق ساروجة ، بناء جامع محمد بندق عام ١٦٨٩ م / ١١٠٠ هـ ، أما الشيخ مراد بن علي البخاري النقشبندي ، فقد بنى عام ١٦٩٦ - ٩٧ م / ١١٠٨ هـ المدرسة المرادية الجوانية الكبرى وكانت بالقرب من سوق المردية الذي بناه الوزير مراد باشا في باب البريد ، وكانت المدرسة تشتمل على ٥٢ غرفة ومكتبة عظيمة . كذلك بنى الشيخ المدرسة المرادية البرانية التي في بيته في سوق ساروجة وبنى معها مسجداً ، وتتألف من باحة سماوية مستطيلة تحيط بها ثلاثون غرفة ، وهكذا نلاحظ أهمية حي سوق ساروجة الذي تكاملت بنيته العمرانية وسكنه كبار القوم والرسميين الأتراك لدرجة دعي معها باستانبول الصغيرة وأصبح حياً متميزاً . كذلك أخذ حي القنوات بتأكيد شخصيته العمرانية المتميزة ، فأصبح حي الذوات وبنى فيه حمام ملكة الشهر عام ١٧٢٣ م / ١١٣٦ هـ وكذلك جامع العجلوني وجامع العداس .

ان هذه المشيدات الكبيرة الدينية منها والمدنية للفترة العثمانية ، بنيت خارج الأسوار مما يؤكد انتشار المدينة خارج أسوار دمشق القديمة ، وهكذا يمكننا أن نستنتج أن الجامع الأموي الكبير لم يعد المركز الوحيد لتجمع المجتمع الاسلامي في المدينة ، رغم أنه مركزها الأساسي التقليدي .

ومع تقدم المدفعية ، أصبحت التحصينات القديمة لدمشق بالية ، وبدأت قلعة دمشق تفقد أهميتها . وقلل السلام الذي ساد أرجاء الامبراطورية من قيمة الأسوار المحيطة بالمدينة ، فبدأ الناس بغزوها وتشبيد المساكن فوقها ، بينما أصبح الخندق مقلباً للقمامة ، مما استدعى ردمه فيما بعد ونشوء أسواق فوقه . كذلك ظهرت أعمال الناس الخيرية في انشاء السبلان والمدارس والزوايا .

وفي أوائل آذار عام ١٧٢٥ م / ١١٣٨ هـ عين اسماعيل باشا العظم والياً على دمشق ، وكان أول والٍ من آل العظم يعين على دمشق ، تلاه ولادة آخرون من الأسرة نفسها في دمشق وغيرها . كان ظهور آل العظم في هذه الفترة كولاية ، جزءاً من ظاهرة هامة عمت كثيراً من الولايات العربية في القرن الثامن عشر

كذلك شهدت بلاد الشام في هذه الأثناء ، تطوراً هاماً يتعلق بانتقال أمانة الحج الى دمشق ، وتعيين ولاية الشام باستمرار لهذا المنصب منذ عام ١٧٠٨ - ٩ م / ١١٢٠ هـ وحتى نهاية القرن الثامن عشر .

وقد نتج عن نقل مركز أمانة الحج الى دمشق ، وعن تكليف ولاية الشام بهذا الأمر باستمرار ، تطورات هامة ، تركت آثارها على تاريخ بلاد الشام بأكملها ، ان أبقيت عليهم مسؤولية أمانة الحج بسبب كثرة اعتداء البدو على الحجاج ، وذلك لدرئها لأن سمعة السلطان كحام للحرمين الشريفين وبالتالي لقافلة الحج ستتأثر نتيجة لذلك . ولقد نتج عن تعيين ولاية الشام لمنصب أمير الحج الشامي تعيينهم عن دمشق لفترة طويلة سواء في الدورة أم في الجردة . وكانت العادة أن يأتي أمير الحج ، حاكم الصنجد مع قواته الى قبة الحج ، الواقعة جنوبي حي الميدان بدمشق ، خارج باب الله لتسلم قيادة قافلة الحج .

وأهم أعمال اسماعيل باشا العظم العمرانية ، بناؤه المدرسة التي في سوق الخياطين والتي تعرف بمدرسة اسماعيل باشا العظم عام ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ الى جانب حمام في سوق الخياطين ، وبنى أيضاً عام ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ حماماً في الشارع المستقيم عرف فيما بعد بحمام حي الخراب .

أما سليمان باشا العظم فقد بنى خلال فترة ولايته الأولى خاناً شهيراً عرف باسم خان سليمان باشا أو خان الحماصنة في سوق العبي سنة ١٧٣٢ م / ١١٤٥ هـ وذلك بمسقط أفقي معدل ، اذ أصبح الفراغ المركزي أصغر وتمت تغطيته بقبتين كبيرتين محمولتين على مثلثات كروية ، وأصبحت البضائع محمية من تقلب عوامل الطقس . كان هذا نمطاً جديداً من البناء ، ودمشقياً بشكل خاص . كذلك بنى مدرسة عرفت باسم مدرسة سليمان باشا العظم أو السليمانية الجوانية سنة ١٧٣٧ . أما في ضاحية الصالحية في هذه الفترة فقد بنى جامع الشيخ عبد الغني النابلسي المتصوف الشهير ، مكان بيته ، الذي يحوي قاعته الشهيرة وقصره والحمام ، عام ١٧٣٣ م / ١١٤٦ هـ ، أضف الى ذلك أن فتحي أفندي الدفترى ، أي الدفتردار ، المشرف على حسابات الولاية أمر في عام ١٧٤٢ م / ١١٥٥ هـ في تعمير طريق الصالحية ، فقلب بلاطه وعمر صفته وأصلح حاله مع الناس ورمم الجامع الأموي عام ١٧٤٣ - ٤٤ م / ١١٥٦ هـ ، وبنى مدرسة في القيمرية عرفت باسم المدرسة الفتحية عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ ، ثم تلاها ببناء حمام في الميدان باسم حمام فتحي عام ١٧٤٥ م / ١١٥٨ هـ ، وكذلك القهوة . ومن أعظم أعماله

تجديده لمنارتي التكية السليمانية التي في المرجة ، وذلك بعد سقوطهما أيام الزلزلة فأعيدتا أحسن مما كانتا ، وله غير ذلك .

أما سليمان باشا في ولايته الثانية ، ففي أوائل شهر صفر الخير من عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ جاء خبر عن الحج الشريف ، بأنه غرق في الحسا قرب القطرانة . فاستغاثوا بحضرة سليمان باشا العظم والي الشام وأمير الحج ، فعلا نهض وأخذ معه جماعة وذهب نحو مرحلة ، وقد خاطر هو وجماعته ، ثم غاب يوماً وليلة بعدما جدوا في طلبه ، وإذا هو قادم ومعه الأحمال لم تنقص ولا ذرة ثم ناداهم وسلمهم إلى أصحابهم ، ولم يندس حجه بشيء . وقد عدوا هذه المنقبة لمثله ، من الهمم العالية والمروءة السامية .

وفي يوم الأحد غرة جمادى الأولى عام ١٧٤٣ م / ١١٥٦ هـ شرع حضرة سليمان باشا العظم في ترميم وترميم نهر القنوات ، وجعل جميع المصارف من ماله ، فأمر بقطع بعض الصخر عن طريقها ، وبتشييد أركانها ، وإصلاح ما فسد منها ورفع جدرانها وبضبطها ضبطاً جيداً ، وبإصلاح فروض مستحقها على وجه الحق ، فكانت هذه العمارة والضبط ما سبقه إليه أحد منذ عهد إصلاحها من أيام التيمور لما أصلحت بعده ، وقد تمت عمارته في برهة خمسة عشر يوماً أول مربعانية الصيف ، ولما تم ، مر بإطلاق النهر فكان إطلاقه على أهل دمشق فرحة من أبهج الفرج ، ويوم مثل يوم الزحام .

بعد ذلك ، تولى أسعد باشا العظم ولاية الشام في ظروف صعبة ، فبسط النظام والأمن في المدينة والقفار حتى هابت العشائر البدية فلم تجرؤ على الاعتداء على قافلة الحج الشامي طوال عهده ، الذي بدأه باحتلال قلعة دمشق من اليرلية في ١٧ آذار ١٧٤٦ م / ٢٢ صفر ١١٥٩ هـ وكانت قوة اليرلية الرئيسية في الميدان ، وبعضها في سوق ساروجة ، فخدعهم أسعد باشا بمهاجمة ساروجة والتفت بعد ذلك إلى إخضاع الميدان حيث يوجد زعيم الزرب ، وهكذا أصاب الذعر يرلية هذا الحي بعد نجاح أسعد باشا في هجومه على ساروجة ، فهرب الأشقياء قبل احتدام القتال ، ونهب عسكر أسعد باشا حوالي خمسمائة دار وهدموا بعضها ، ورغم الفوضى خلال هذه العملية فقد سر الدمشقيون من عمله .

ثم التفت إلى البناء ، فبنى أول الأمر في عام ١٧٤٩ - ٥٠ م / ١١٦٣ هـ قصره الشهير في البزورية ، وفي ١٤ شوال قبل رحيله إلى الحج بثلاثة أيام من هذه

السنة انتهت عمارة دار الباشا، التي هي لحرمه ونقل حرمه إليها. ولم يكن قصره مجرد بناء عادي ، قام به أحد الولاة العاديين . إذ لم تشهد الشام في العهد العثماني قصراً لوالٍ محلي يمثل هذه الضخامة ، حتى حسين ناظم باشا ، وبقي قصر أسعد باشا بدون مثيل بين أبنية الولاة العثمانيين . ويدل بناؤه على مقدار النفوذ الذي بلغه أسعد باشا مع أسرته في الشام بعد أن أمضى في حكمها حوالي أربع عشرة سنة .

ثم أمر في عام ١٧٤٩ م / ١١٦٣ هـ حضرة الوزير أسعد باشا العظم ، متولي الجامع الأموي الشيخ ابراهيم الجبائي السعدي بأن يصلح أحوال الجامع المذكور ويتفقد مصالحه ، فحالاّ بأشروا بترميم المئذنة الغربية وأزالوا ما فيها من الأحجار العاطلة ، وأزالوا ما من الحصر والطنافس العتق ، وفرشوه فرشاً جديداً بهمة حضرة الباشا . ثم جدد ووسع عام ١٧٥٠ م / ١١٦٣ هـ مدرسة أبيه اسماعيل باشا التي في سوق الخياطين الحجرات فوقانية ، وجعل في قبليها جامعاً وخطبة ، ورتب أجزاء من القرآن وشورية وزيتاً وغير ذلك ؛ ثم بدأ بعدها ببناء قيساريته الشهيرة التي تعرف بخان أسعد باشا في سوق البزوريين سنة ١٧٥٢ - ٥٣ م / ١١٦٦ هـ وهو من أهم خانات دمشق ، نموذج معماري مسقطه الأفقي مربع الشكل ، مغطى بثمانى قباب متوسطة الحجم تحملها أربعة أعمدة حجرية بواسطة مثلثات كروية . ثم التفت ثانية إلى ترميم الجامع الأموي عام ١٧٥٤ م / ١١٦٨ هـ واشترى طنافس بأربعة أكياس . وتابع عام ١٧٥٥ م / ١١٦٩ هـ ترميمات أخرى فأمر بترميم وإصلاح جامع الياغوشية الذي تحت القلعة . ومن الجدير بالذكر أن المقاهي قد ازداد عددها في المدينة بشكل ملحوظ ، فلاحظنا عام ١٧٥٤ م / ١١٦٨ هـ قهوة سوق الخيل التي صاحبها درويش آغا ، وفي أول رجب عام ١٧٥٥ م / ١١٦٩ هـ تمت قهوة الشاغور التي هي مقابلة للشيخ السروجي . وفي العام نفسه عمرت أيضاً قهوتين بباب السريعة وقهوة أمام باب المصلى . كذلك لاحظنا قبل عام ١٧٥٦ م / ١١٧٠ هـ خان السيد ، قبالة جامع المعلق خارج السور وخان بني الناشف قرب جامع درويش باشا ، وكذلك قبل عام ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ خان الدقايق جنوب البزورية .

وهنا لا بد لنا من وقفة مطولة أمام أهم الأعمال التي قام بها العثمانيون قاطبة في دمشق ألا وهو إعادة بناء الجامع الأموي بالذات ، إثر زلزال دمشق المروع

عام ١٧٠٨ م / ١١٧٢ هـ الذي بدأ في ليلة الثلاثاء ثامن ربيع الأول الموافق شهر تشرين الثاني من هذه السنة في الثلث الأخير من الليل والمؤذنون في المآذن يشتغلون المراسلة ، صارت زلزلة خفيفة ، وتبعها ثانية ثم ثالثة زلزلت منها دمشق زلزالاً شديداً حسب أهل دمشق أن القيامة قد قامت ، فتهدمت رؤوس غالب مآذن دمشق ودور كثيرة وجوامع وأماكن لا تحصى ، حتى قبة النصر التي بأعلى جبل قاسيون زلزلتها وأرمت نصفها ٠٠٠ واستمرت إلى سبع وعشرين ليلة ٠ وفي ليلة الاثنين رابع ربيع الثاني ، خامس كانون الأول في الساعة الخامسة (عربي) صارت زلزلة عظيمة أعظم من الأولى بدرجات ، وقد صارت معها رجة مهولة أسقطت بقية المآذن وأرمت قبة الجامع الأموي الكبيرة والرواق الشمالي جميعه والعواميد تكسرت ، والحائط الشرقي سقط إلى الأرض والمنارة الشرقية هدمت ثلث الحرم ، مع مدرسة الكلاسة وباب البريد وأبراج القلعة ، وغالب دور دمشق ٠٠٠ ولقد حصل هذا الزلزال في عهد الوالي عبدالله باشا الشتجي ؛ وفي عهد الوالي محمد باشا الشالك ، يوم السبت ٢٢ رجب ١٧٥٨ م / ١١٧٢ هـ جاء قبجي الدولة العلية سبانخ زاده لأجل الكشف على الجامع الأموي وعمارة قبة وجهته الشمالية ومآذنه المهدومة في الزلزال ومعه باش معماري وفعله لأجل مباشرة تعمير الجامع المذكور .

وفي عهد العالي عثمان باشا ١٥٧٩ م / ١١٧٣ هـ بوشر بعمارة الجامع الأموي ، فدخلته المعمارية والنجارون والدهانون والحجارة ، وبذلوا الهمه بتعمير القبة والجهة الشرقية وما سقط من المآذن وبتحسين جميعه . وكان الجامع لا يفتح الا في وقت الصلاة فقط ، والعمارة أيضاً مشتلة في القلعة وترميمها . وقد تمت عمارة القلعة في شهر رجب عام ١٧٥٩ م / ١١٧٣ هـ ، وتم تعمير الجامع الأموي والجهة الشمالية والقبة وترميم المنائر وتحسينه في شهر رمضان سنة ١٧٥٩ م / ١١٧٣ هـ .

وفي سنة ١٧٦٣ - ٦٤ م / ١١٧٧ هـ بنيت المدرسة المرادية الجوانية الصغرى في منطقة باب البريد . وفي سنة ١٧٦٤ - ٦٥ م / ١١٧٨ هـ في عهد الوالي الوزير المعظم الحاج صادق عثمان باشا ، تم تجديد قاعة الشيخ عبدالغني النابلسي بعد انهدامها ، كذلك في عام ١٧٦٥ - ٦٦ م / ١١٧٩ هـ تم إعادة بناء منارة المدرسة المرادية البرانية وتم تجديد جامع وسبيل محمد بندق عام ١٧٦٨ م

١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م / ١١٨٣ هـ اشترى عثمان باشا والي الشام ماءً من القنوات وقام ببناء قناة داخل صحن الجامع الشريف الأموي وجلب لها الماء من نهر القنوات ، وعمر البحرة التي في وسط الجامع في شهر رمضان وصرف في ذلك أموالاً كثيرة ، وصار بها فرج للناس عند انقطاع نهر بانياس ، كذلك صنع كسوة جديدة للمحل .

أما آل العظم الذين خبا دورهم لفترة ما ، فقد استعادوه مرة أخرى أيام ولاية محمد باشا العظم ، حفيد اسماعيل باشا ، حين عينته الدولة العلية والياً على الشام ١٧٧١ م / ١١٨٥ هـ ، فكان أول من تولاهما مرة أخرى من آل العظم بعد نقل أسعد باشا منها ، وأقام بها والياً حتى وفاته عام ١٧٨٢ - ٨٣ م / ١١٩٧ هـ . لقد كانت أيامه مواسم أفراح ، وقد عمر في دمشق أبنية كثيرة وقرب اليه العلماء والأدباء وراجت في أيامه سوق الشعر . وخلال الفترة الثانية من ولايته ، ساعد في بناء مئذنة جامع الشيخ عبد الغني النابلسي عام ١٧٧٣ - ٧٤ م / ١١٨٧ هـ ، وفي عام ١٧٧٦ - ٧٧ م / ١١٩٠ هـ بنى حافظ العظم غربي قصر أسعد باشا وشرقي بيت عبدالله باشا العظم بيتاً له . أما مدرسته التي بدأ ببنائها عام ١٧٧٩ م / ١١٩٣ هـ فسيزيد فيها ابنه عبدالله باشا وستشتهر باسمه فيما بعد . اذ أوقف هذه المدرسة عبدالله بك ابن الوزير محمد باشا العظم والي الشام وأمير الحج ابن مصطفى بك العظم ؛ أوقفها عن والده بالوكالة عنه ، وكانت قبل ذلك قاعة غربية من دار الواقف الوكيل التي تحمل بعض زخارفها كتابة تؤرخ عام ١٧٨٠ - ٨١ م / ١١٩٥ هـ ، مع مساكن تابعة لها داخلها وخارجها ، فهدم تلك المساكن وبنى المدرسة المذكورة من ماله ، وجعل لها باباً خاصاً بها قنطرته من حجر ، وجعل الباب مصفحاً بالنحاس ، وجعل لها شبابيك مطلة على الزقاق وجعل في الأسفل حجرات وجامعاً وبنى فوقه أيضاً حجرات بقبو ، وجعل في الأعلى حجرات أيضاً ، وجعل القصر الذي بين الطبقة الثانية والثالثة الراكب على الطريق خاصاً بالمدرس الذي يكون في المدرسة .

وفي عام ١٧٨٠ - ٨١ م / ١١٩٥ هـ عمر محمد باشا العظم سوقاً في باب القلعة من عند سوق الأروام الى فرن الكمك والقناية ، أكثر من مائة وعشرين دكاناً ، وأمر التجار والبازركان ، أن يأخذ كل واحد منهم دكاناً ويضع فيها البضائع

الحسنة ، وصار سوقاً ماله مثيل ، وعمرله في قفا السوق سرايا ما بني في الشام
أحسن منها ، هذا السوق هو السوق الجديد الذي سيعرف فيما بعد بسوق
الحميدية .

أما في عام ١٧٩٤ م / ١٢٠٨ هـ فقد أنشئ سبيل على الجهة الشرقية من جدار
جامع الورد القبلي في سوق ساروجة .

وفي عام ١٧٩٦ م / ١٢١١ هـ وخلال فترة الولاية الأولى لعبدالله باشا العظم
بنيت الزاوية السعدية الجوانية شرقي القيمرية ، تضم جامعاً بمنارة وزاوية .

وفي عام ١٧٩٧ م / ١٢١٢ هـ بني بيت سعيد أفندي القوتلي ، شمالي الجامع
الأموي ، والذي سيصبح مقر القنصلية البريطانية فيما بعد ، أما بيت مراد
أفندي القوتلي فلقد بني في نفس الفترة في زقاق العواميد .

وفي عام ١٨٠٢ م / ١٢١٧ هـ بني بيت نظام في منطقة مئذنة الشحم .

★ ★ ★